البيئة في التصور الإسلامي

د. نسيمة جرود
أستاذة محاضرة بقسم علم النفس
جامعة البليدة 2.

ملخص

إن مسألة حماية البيئة والحفاظ عليها والتنمية المستدامة لمواردها هي مسألة في غاية الأهمية، ولن تستطيع التشريعات والقوانين وحدها أن تحقق هذا الهدف، بل إن المسألة تربوية بالدرجة الأولى؛ فنحن في حاجة إلى غرس قيّم واتجاهات تكون بمثابة محرك وموجه لسلوك الإنسان. ولقد اهتم الإسلام اهتماما بالغا بالبيئة فكان له دورا بارزا في هذا المجال، حيث حث على حماية البيئة وصيانتها وعدم استنزاف مواردها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا على الرغم من أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن معرضة للمشكلات الآتية، وبما أن القرآن هو معجزة الكون وكذا السنة النبوية الشريفة لم يتركا جانبا من جوانب إلا ووضعا له التشريعات المحكمة وكأنها تخاطب هذا العصر.

لهذا نحاول من خلال هذا المقال إبراز علاقة الإنسان ببيئته في التصور الإسلامي والمقومات التي تبنى عليها التربية البيئية في الإسلام لتكّون معايير وموجهات تضبط سلوكات الإنسان اتجاه بيئته .

كلمات مفتاحية: البيئة، التربية البيئية.

Abstract :

A special importance has been attached by Islam to the question of environment, indeed, it urged to protect environment and upkeep its ressources since more than fourteen centuries even the environment that time was not confronted to current problems and considering that Coran is the miracle of the univers as well as the Sunna, they did take in consideration and cover all aspects of life and built wise rules and regulations as if the message was addressign this era.

Therfore and via the present paper, an attempt is made to emphasize the relation of human with environment within an islamic approach and the fundamental principles upon which the environment education in Islam is set so as to establish laws and regulations which would regulate human behaviours towards environment.

Keywords : environment, environmental education.

مقدمة

برزت القضايا البيئية إلى جوهر اهتمام العالم، وأصبحت تشكل جزءا من همومه وهذا نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي للإنسان بغية الحصول على حياة أفضل، غير أن هذا الطموح الجامح نحو تحقيق الرفاهية أو محاولة السيطرة على الطبيعة جعله في المقابل يدفع الثمن باهظا، وما الخلل والتدهور الحاصل في عناصر البيئة ومكوناتها إلا محصلة أو نتيجة لتدخلاته اللاعقلانية واللاواعية، فالبيئة تتعرض لأخطار عديدة كالتلوث بمختلف أشكاله، محدودية مصادر الطاقة والغذاء وتزايد عدد السكان بدرجة أكثر من تزايد هذه الموارد، ...، إلى غير ذلك من المشكلات التي أصبحت تؤرق البشرية، وإذا أمعنا النظر فسوف نجد معظم هذه المشكلات هي في الأصل مشكلات تعود إلى الأنماط السلوكية للأفراد وعدم وعيهم بأهمية مقومات البيئة وضرورة المحافظة عليها لتبقى الحياة قائمة ليس للجيل الحالي فحسب بل للأجيال القادمة، وديننا الحنيف كان له السبق في التنويه لهذه المشكلة ويتضح ذلك جليا في قوله تعالى" ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون". (سورة الروم، الآية 41).

ويقول كذلك " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين" (سورة الأعراف، الآية 31).

ويقول أيضا جل شأنه " كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (سورة البقرة، الآية 60).

من خلال الآيات السابقة الذكر يتضح جليا أن المولى تبارك وتعالى لم يستخلف الإنسان في الأرض ليهلكها ويفسدها وهو الذي خلقها بميزان دقيق مصداقا لقوله تعالى " إنّا كل شيء خلقناه بقدر" (سورة القمر، الآية 49).
فالنظام البيئي له من الحساسية ما يجعله كميزان يختل لأقل تأثير خارجي، لهذا اهتم الإسلام اهتماما بالغا ببث القيم الأخلاقية التي تقوّم سلوك الإنسان وتهديه إلى الصراط المستقيم، وفي السياق ذاته اهتم بالقيم البيئية فكان له دور بارز في مجال التربية البيئية حيث حثّ على حماية البيئة وصيانتها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وعلى الرغم أن البيئة وقتها لم تكن معرضة لها فيها الآن من مشكلات، فإن القرآن الكريم – معجزة الكون- والسنة النبوية الشريفة لم يتركا جانبا من جوانبها إلا ووضعا له التشريعات المحكمة، وكأنها شرّعت خصيصا لعصرنا هذا ، عصر التلوث والاستنزاف وإفساد البيئة.
فقد قرّب القرآن الكريم بين الإنسان وبيئته ورفض مفهوم العداوة بينهما مثلما كان سائدا في الفكر الوثني والإغريقي الروماني القديم بأن أوضح أن الله هو الذي خلق البيئة والإنسان، كما أودع فيه الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف على بعض مواردها واستخدامها في إشباع حاجاته، بل جعل الإنسان يعيش في بيئة صديقة وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة، يعيش مطمئن القلب حتى ينهض بالخلافة عن الله عز وجل في الأرض، اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة ويتعامل مع البيئة بروح الصداقة.
ومن هنا نجد أن علاقة الإنسان ببيئته في التصور الإسلامي تقوم على أساس أنه جزء منها ومكوّن رئيسي، فهو مخلوق من عناصرها، وكلاهما، أي الإنسان والبيئة، مخلوق بقدرة الخالق سبحانه وتعالى لغاية محددة ولكي يستمر الوجود كان لابد من سيادة أحدهما وتسخير الآخر ليكون في خدمة الأول وشاءت قدرة الله أن يكون الإنسان هو المسيطر والخليفة في الأرض.
قال الله تعالى" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون" (سورة البقرة، الآية 30).
ولكي تتحقق هذه السيادة وتلك السيطرة كان لابد من تواتر أمرين أساسين: الأول هو أن يتميز الإنسان على سائر الموجودات ببعض الاستعدادات والقدرات التي تمكّنه من حسن القيادة، بمعنى أن يكون الإنسان سيد هذه البيئة وأرقى المخلوقات مرتبة، قال تعالى" لقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقناه تفضيلا" (سورة الإسراء، الآية 70).
والأمر الثاني هو تسخير البيئة بكل ما فيها من مكونات للإنسان لكي يستثمرها ويطورها ويملأ أرجاءها نورا وعلما وجمالا ورخاء لصالح الجميع. قال تعالى " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النّشور" (سورة الملك، الآية 15).
وهكذا خلق الله الكون ثم خلق الإنسان من أجل مهمة أوضحها القرآن الكريم في كونه خليفة الله في هذه الأرض، وتلك هي وظيفة الإنسان، وهذه الخلافة تعني تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها والانتفاع الإيجابي بكل ما خلقه الله. قال تعالى" هو أنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها" (سورة هود، الآية 61)، ومعنى استعمركم أي طلب منكم عمارتها، وذلك لا يتأتّى إلا بأمرين: الأول هو أن تبقى الصالح على صلاحه ولا تفسده، والأمر الثاني هو أن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه.
كما يحدد القرآن الكريم إلى جانب هذه الوظيفة، الغاية التي خلق الإنسان من أجلها في قوله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون" (سورة الذريات، الآية 56). فعبادة الله إذن، هي الغاية التي يسعى إليها الإنسان في حياته، وما الخلافة إلا وسيلة لتحقيق تلك الغاية.
مما سبق يتضح لنا أن خلافة الإنسان في الأرض هي تكليف صار بموجبه يحمل الأمانة الكبرى التي عجزت عنها كل المخلوقات. قال تعالى:" إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفق منها وحملها الإنسان" (سورة الأحزاب، الآية 72).
لذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخّر للإنسان كل ما في الكون لكي ينهض بأعباء المسؤولية. قال تعالى:" وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (سورة الجاثية، الآية 13).
غير أن هذا التسخير لن يواتي كل إنسان لأن إرادة الله سبحانه وتعالى قد قضت أن يرتبط هذا التسخير بمعرفة قوانينه فمن حاز هذه المعرفة من بني البشر، أمكنه الاستفادة منها في القيام بمسؤولية الاستخلاف

ومن تقاعس عن دراسة هذه القوانين وتخلف عن العلم بمنطقها، فقد جحد بالأمانة التي ناطها الله به فهذه هي إرادة الله وسنته في خلقه سادت في تاريخ السابقين، غير أن مسؤولية الاستخلاف لا تقف عند حد معرفة القوانين التي يمكن من خلالها تسخير الكون بل تمتد إلى استثمار هذا التسخير في تحقيق الخير للبشرية كلها.
وهكذا فإن وظيفة استخلاف الإنسان في الأرض، كما حددها القرآن الكريم، ذات شقين: الشق الأول هو تعمير الكون وإحياؤه عن طريق اكتشاف القوانين الضابطة له واستخدامه، والشق الثاني هو إشاعة مجموعة من القيم والمبادئ التي تضمن تحسنا مضطردا في نوعية العلاقات على وجه الأرض، وهو ما يسمى تحسين نوعية الحياة، وباستمرار تفاعل هذين العنصرين تنشأ الحضارة الإنسانية الحقيقية. أما إذا تحقق العنصر الأول وتخلف العنصر الثاني فإن الحضارة عندئذ ذات طابع مادي بحت.
والبيئة أيضا من نعم الله التي أنعم الله بها على الإنسان، وقد أشار القرآن إلى موارد البيئة وأكد على أهميتها وضرورة الاستفادة منها وضرورة المحافظة عليها، غير أنه وقبل الخوض في الكيفية التي تطرق لها المنهج الإسلامي للمحافظة على موارد البيئة لابد من التطرق إلى مفهوم البيئة.

مفهوم البيئة:

كلمة بيئة مشتقة في اللغة العربية من الفعل بوّأ، فنقول تبوّأ المكان أي نزل وأقام به، والبيئة والمباءة بمعنى المنزل أو الحال، وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب معنيين للبيئة قريبين من بعضهما، الأول بمعنى إصلاح المكان وتهيئته للمبيت فيه، فيقال (تبوّأه) أي أصلحه وجعله ملائما لمبيته ثم اتخذه محلا له، والثاني بمعنى النزول والإقامة، كأن نقول تبوّأ المكان أي حلّه ونزل فيه وأقام به، كما نقول كما نقول بوّأه مكانا أو مرتبة أي أنزل فيه.
وقد جاء استعمال أصل كلمة البيئة في القرآن الكريم في عشرة مواقع هي:
قال تعالى في سورة آل عمران الآية 121: " وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال".
وقال تعالى في سورة الأعراف الآية: " وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا".
وقال أيضا في سورة يونس الآية87: " وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتا" وقال جلّ علاه في نفس السورة الآية 93" ولقد بوّأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم".
وقوله جل جلاله في سورة يوسف الآية 75: " وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين"، ويقول في سورة النحل الآية 41: " والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون".
وفي سورة الحج الآية 26 يقول الحق تعالى: " وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود".
وقال تبارك وتعالى في سورة العنكبوت الآية 58: " والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنهم من الجنة غرفا".
وفي سورة الزمر الآية 74 يقول تعالى: " وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء".
وقوله تعالى في سورة الحشر الآية 9: " والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم".
ولم يختلف استعمال السنة النبوية المطهرة للفظ البيئة في هذا المعنى عنه في القرآن الكريم إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف " من كذب عليّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار".
وهكذا يتضح لنا أن اللغة العربية، موثّقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد برهنت على أصالة وعروبة لفظ البيئة، وأنها ليست تعريبا لاسمها المتداول في الغرب " Environnement" على أن الأمر لم يقف عند حد اللغة فحسب، بل نجد لعلماء المسلمين وعلى رأسهم عبد الرحمن ابن خلدون قصب السبق في تحديد مفهوم البيئة وتعريفها.
ويشير الكثير من الباحثين إلى أن البيئة هي ذلك الإطار الذي يحيا فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته ويمارس فيه علاقته مع بني البشر.

فالبيئة كل متداخل ومتكامل، والإنسان يعيش على كوكب الأرض، وهي تمثل في مجموعها نظاما إيكولوجيا واحدا كبيرا ومن هذا المنطلق لا يمكن النظر إلى المشكلات البيئية نظرة منفصلة أو محلية أو جزئية، بل يفرض علينا أن ننظر إليها نظرة تكاملية شاملة.
وعليه سوف نتناول ملامح المنهج الاسلامي لعلاج قضية البيئة من خلال مدخلين هما: أصول ومصادر المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة، ووسائل المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة.
أولا: أصول ومصادر المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة:
تنبع أصول ومصادر المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وذلك على النحو التالي:
مفهوم البيئة في التصور الإسلامي: إن المفهوم الاسلامي للبيئة أكثر عمقا مما يراه علماء الغرب الذين يرون أن البيئة هي المجال الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها، فهو يربط البيئة بمجمل المنظومة البيئية الإيمانية للمسلم، فالمسلم يؤمن بإله واحد خالق الكون ومنزل القرآن الكريم، ومن ثم فمفهوم البيئة في المنظور الإسلامي يعني أكثر من مجرد سرد لمكونات البيئة أو النظام البيئي، فهو يربط هذه المكونات بالنفس البشرية، لأن شريعة الإسلام لا تقف بالإنسان عند حدود الماديات وشكلها وإنما تجعلها وسيلة لبلوغ الهدف الأسمى وهو تزكية النفس وتطهيرها، وتشكل البيئة في الرؤية الإسلامية كيانا حيا، فليس الأرض مجرد جرم يطؤه الناس بأقدامهم وليست الجبال مجرد كيانات هامدة وإنما هي كائنات حية لها حس وانفعال خاص حيث يقول الله تعالى " تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا" (سورة الإسراء، الآية 44).
ويقول أيضا " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" (سورة الحج، الآية 5).
ويقول كذلك " وسخّرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين" (سورة الأنبياء، الآية 79).
ويقول المصطفى عليه السلام " لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلاّ شهد له يوم القيامة".
ويعكس التصور الإسلامي نظرة عميقة لمفهوم البيئة، فقد طالب الإسلام الإنسان بأن يتعامل مع البيئة من منطلق أنه ملكية عامة يجب المحافظة عليه حتى يستمر الوجود حيث يقول تعالى" ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين" (سورة الأعراف، الآية 85).
ونظرة الإسلام إلى البيئة لم تقتصر على البعد المكاني لها وإنما شملت أيضا البعد الزماني،" قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" (سورة العنكبوت، الآية 20).
وقد طالب الإسلام المسلم أن يستثمر عمره، باعتباره بعدا زمنيا هاما في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق أنها نعمة كبرى للإنسان ودعاه إلى النظر فيها والتأمل في مخلوقات الله وجعل ذلك دليلا على الإيمان "قل أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون" (سورة يونس، الآية 101).
فكل ما خلقه الله في البيئة قد خلقه بمقادير محددة وصفات معينة بحيث تكفل لها القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الأخرى التي تشاركه الحياة على الأرض، والقرآن الكريم يلخص هذه الحكمة بقوله تعالى " إن كل شيء خلقناه بقدر" (سورة القمر، الآية 49).
وهو تعالى يعلم أن هذا القدر هو الذي يكفل لأي مكون أو عنصر من عناصر البيئة أن يؤدي دوره المحدد والمرسوم له في صنع الحياة في توافقية وانسجامية غاية في الدقة فخضع كل ما في الكون لدورة حيوية رسمها الخالق العظيم تتسم بالدقة والاتزان. وتنقسم البيئة من المنظور الإسلامي إلى قسمين أساسيين هما: البيئة الطبيعية والبيئة المشيدة.
فالبيئة الطبيعية هي كل ما يحيط بالإنسان من مكونات طبيعية حية وغير حية من خلق الله سبحانه وتعالى ممثلة في مكونات سطح الأرض وهي بيئة أحكم الله سبحانه وتعالى وأتقن خلقها وضعها كما ونوعا ووظيفة " صنع الله الذي أتقن كل شيء" (سورة النمل، الآية 88).

وليس ثمة شك في أن مكونات أو عناصر البيئة الطبيعية وإن كانت تبدو من مسمياتها مستقلة عن بعضها البعض إلا أنها ليست كذلك في واقعها الوظيفي فهي في حركة ذاتية دائبة من ناحية وحركة توافقية منسجمة مع بعضها البعض من ناحية أخرى في ظل نظام غاية في الدقة تحكمه النواميس الإلهية الكونية، وهو ما يطلق عليه في الوقت الحاضر (النظام الإيكولوجي). وكل تغير في أي عنصر من عناصر البيئة سواء في خصائصه الكمية أو النوعية يؤدي إلى المشكلات البيئية.

أما البيئة المشيدة فيشلها الإنسان وما أحدثه من ظواهر بشرية متباينة أثناء تعامله مع بيئته الطبيعية، ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثا، وإنما قضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإنسان خليفة في الأرض وأن يتمتع بقدرات ونعم لا يتمتع بها غيره من المخلوقات فقد قال تعالى:" ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر و البحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (سورة الإسراء، الآية 70).

فقد كرمه بالعقل وشدد على ضرورة حسن استخدامه له. قال تعالى: "وما يذكر إلا أولو الألباب" (سورة البقرة، الآية 296).

القرآن الكريم والسنة النبوية: لقد حدد القرآن الكريم الغايات والمقاصد الكبرى للعقيدة الإسلامية وعدّ الإنسان وسيلة وغاية بوصفه أحد المكونات الكون الفاعل في النظام الإيكولوجي والمسؤول عن إدارتها واستثمارها وحمايتها وفق الموجهات الأساسية الواردة في الآيات القرآنية، ليتصرف فيها تصرف الأمين في حدود أمانته، فالانتفاع بالبيئة حق للجميع والتصرف على أن الناس جميعا شركاء ولهم علاقة، وهي ملك للأجيال القادمة والمحافظة عليها حق شرعه الله سبحانه، وما على الإنسان إلا التفكر والعبادة والسكن والتعمير والاستثمار والانتفاع وتذوق الجمال.

ويشير القرآن الكريم إلى تسخير الأرض والبحار والأنعام في العديد من الآيات ومنها قوله تعالى: " ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره" (سورة الحج ، الآية 65).

وقوله: " هو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه وتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون". (سورة النحل، الآية 14).

ويسلك القرآن الكريم مسلكين للحفاظ على البيئة، مسلك يكفل الله سبحانه وتعالى به حفظ النوع والسلالة لجميع المخلوقات، ودعوة الإنسان للحفاظ على هذه السلالات، فيشير القرآن الكريم إلى ذلك في عرضه لقصة الطوفان التي حدثت في عهد سيدنا نوح عليه السلام، حيث أمر الله سبحانه وتعالى أن يصنع الفلك وأن يحمل معه فيها من كل زوجين اثنين حفظا للنوع والسلالة.

قال تعالى: " حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول" (سورة هود، الآية 40).

كما يذكر المولى عز وجل في مواضع عديدة من القرآن الكريم أنه خلق من كل شيء زوجين لضمان عملية التناسل والبقاء وحفظ النوع ومن هذه الآيات قوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون" (سورة الذاريات، الآية 49). وقوله أيضا جل شأنه: "ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين" (سورة الرعد، الآية 3).

وقد دعا القرآن الكريم إلى الحفاظ على المصادر الطبيعية وفي مقدمتها الماء وقد أشارت العديد من الآيات القرآنية إلى أهمية الماء ومنها "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (سورة الأنبياء، الآية 30).

وقوله جل شأنه: " وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء" (سورة هود، الآية 07).

وتأكيدا على أهمية الماء فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من 60 موضوعا، وقد وصفه الله تعالى بأنه ظهور أي ظاهرة في حد ذاته ومطهر لغيره ومنه وجب الحفاظ عليه فالماء أساس الحياة على سطح الأرض فهو لازم لحياة جميع الكائنات على سطح الأرض، وقد ذكر القرآن الكريم أن الماء تكون عن انفصال الأرض والشمس ككتلة غازية تعرضت لظروف تبريد عالية تشكل على أثرها غلافها الغازي، إذن فأصل ماء الأرض من الأرض، قال تعالى: "أخرج منها ماءها ومرعاها" (سورة النازعات، الآية 31).

وقد تحدث القرآن الكريم عن المياه العذبة وأقر أن مصدرها الأمطار قال تعالى: " ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله" (سورة النور، الآية 43).
وكما تحدث القرآن الكريم عن المياه العذبة تحدث عن المياه المالحة فقد قال الحق جل شأنه: " وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج" (سورة فاطر، الآية 12).
وقوله أيضا: " وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا من خَضِرًا نخرج منه حبا متراكبا ومن النحل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرّمان ..." (سورة الأنعام، الآية 99).
وقوله الحق: " والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآية لقوم يسمعون" (سورة النحل، الآية 65).
وقوله تعالى: " وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدّر" (سورة القمر، الآية 12).
وقد ذُكر الماء في القرآن الكريم بمعان مختلفة تقدر حقيقة أن كمية الماء الموجودة في كوكب الأرض ثابتة لا يمكن زيادتها أو نقصانها، لأن بخار الماء الذي يتصاعد من الأرض إلى السماء بفعل حرارة الشمس التي تبخره يعود مرة أخرى إلى الأرض على شكل مطر في دورة محكمة تسمى دورة المياه الأرضية وهذه الدورة تعني أن كمية الماء في الأرض تظل ثابتة مصداقا لقوله تعالى: "والسماء ذات الرجع" (سورة الطارق، الآية 11). هذا ما يؤكد أهمية الماء باعتباره أهم مورد طبيعي يجب الحفاظ عليه من الإسراف والتلوث.
وقد تضمنت السنة النبوية الشريفة الكثير من الأحاديث النبوية التي تلفت الإنسان إلى الاهتمام بأمر البيئة. فعن بن ماجة من حديث بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ، فقال: "ما هذا السرف يا سعد؟" وهل في الوضوء من سرف قال" نعم وإن كنت على نهر جار، فالإسراف يتحقق باستعمال الماء لغير فائدة وإذا كان الإسراف في استخدام المياه للوضوء مكروه فإن الإسراف بالضرورة في الأغراض الأخرى غير مباح.
ومنه أيضا ما رواه أبو داود في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتقوا الملاعن الثلاث قالوا: يا رسول الله وماهي؟ قال البراز في الموارد، وعلى قارعة الطريق وفي أماكن الظل.
وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى صون الماء وحفظ نقائه وطهره فقال عليه الصلاة والسلام: "غطوا الإناء وأوكئوا في السقاء"
ولقد بلغ من حفظ الإسلام للمياه وعدم تلويثها أن نهى من الشرب في فم السقاء أو التنفس في الماء، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يشرب في السقاء والقربة، وروي عن أبي سعيد الخذري أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجل: أنى لا أروي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بن القدح .. إذن عن فيك ".
والحفاظ على الأرض وحمايتها من التلوث وإعمارها بالحسنى من التعاليم السامية التي جاء بها الدين الإسلامي وذكرها القرآن الكريم، ومن دلائل الاهتمام بالحفاظ على الأرض ورعايتها وإعمارها أنها وردت في نحو 500 موضعا في القرآن الكريم.
فقد جعلها الله وما عليها نعمة للإنسان كما وصفها القرآن الكريم "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " (سورة هود، الآية 61)، وقد مهدها الله لتكون فراشا للإنسان قال تعالى: " الذي جعل لكم الأرض فراشا" (سورة البقرة، الآية 22). وقال أيضا: "وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا" (سورة الرعد، الآية 3).
وقال أيضا: " أمن جعل الأرض قرارا وجعل حلالها أنهارا وجعل لها رواسي " (سورة النمل، الآية 61). وفي هذا تأكيد للإنسان ووصية له بأن بحسن استخدام الأرض والتعامل معها وعدم الإضرار بها أو إفساد مكوناتها، فالله قد أمر الإنسان بعد أن استخلفه في الأرض بأن يلتزم بالمحافظة على البيئة التي يعيش فيها والتي استخلفه فيها وأعطاه حق استثمارها والانتفاع بها لتبقى في صورة تدعو إلى التفكير والتأمل والعبادة والمتعة والتذوق، وقد دعا الاسلام إلى حفظ الأرض وعدم تلويثها واستزراعها لما في ذلك من فوائد عديدة للناس، حيث قال تعالى: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " (سورة الأعراف،

الآية 56)، وقوله تعالى: "وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد" (سورة البقرة، الآية 205).
ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إحياء الأرض وزراعتها فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحيا أرضا ميتة فهي له"، وقال في نفس المعنى: "من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق".
وكما دعا الاسلام إلى الحفاظ على الأرض واستزراعها فقد نهى عن قطع الأشجار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار" وقال أيضا عليه السلام: "ما من مسلم يغرس غرسا إلاّ كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة".
وبذلك فإن الاسلام دعا إلى زراعة الأرض وعدم تركها لأن في تبويرها فسادا من ناحيتين: الأولى هي من حيث عدم الانتفاع بها وثمارها لو زُرعت. والثانية هي من حيث أنها لو تركت خالية من الزراعة ستكون محلا للقمامة ولانتشار الأمراض.
وهذا دليل على اهتمام الاسلام بالأرض كعنصر هام من عناصر البيئة له أهميته وقيمته العظمى.
والاهتمام بالنبات من جهة أخرى كمورد هام للإنسان والحيوان عدا عن أهميته في انتاج الأكسجين وتخليص البيئة من ثاني أكسيد الكربون وما تضفيه على البيئة من جمال ورونق.
ولم يكن اهتمام الاسلام بالمحافظة على الحيوانات بأقل من اهتمامه بالمحافظة على الأرض والنبات وقد تجلى ذلك من خلال تسمية مجموعة من سور القرآن الكريم بأسماء حيوانات مثل البقرة والنحل والنمل والعنكبوت والعاديات والفيل والأنعام حيث تعتبر الثروة الحيوانية من المكونات الرئيسية في البيئة ومن ضروريات بقاء الإنسان لما لها من منافع عديدة، قال تعالى: "والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (سورة النحل، الآيات 5-8). وقال أيضا: "أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون، وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون" (سورة يس، الآيات 71-73). وقال كذلك جل شأنه: "الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأولى النهى". (سورة طه، الآيات 53-54).
ولما كانت السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي فقد تعرضت أيضا بطبيعة الحال لأهمية رعاية الحيوانات وأوجبت علينا الاهتمام بها والعمل على حسن استغلالها والاستفادة منها والمحافظة عليها، لأن هذه الحيوانات مسخّرة لفائدة الانسان وفي الوقت نفسه خلقها الله تعالى لتؤدي وظيفتها في الحياة إلى جانب الانسان ومن الأحاديث التي وردت في حماية الحيوانات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دخلت امرأة النّار في هرة، حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".
وقد حلل الاسلام صيد البر والبحر باعتباره حلالا غير أنّه وضع له قواعد صارمة تمنع الصيد الجائر لغير منفعة فعن النبي صلى الله عليه وسلن قال: "من قتل عصفورا عبثا عج (أي رفع صوت بالشكوى) إلى الله يوم القيامة يقول يا رب إنّ فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة.
وما يدل على العناية بالحيوانات والرحمة بها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليلوّح ذبيحته".
ونهى الرسول عن إجاعة الحيوانات وتعريضها للهزال والضعف لقوله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة".
واهتم الاسلام بحفظ النوع والسلالة في الانسان والأنعام والأشجار وجميع الكائنات لأن كل هذه المخلوقات تؤثر في التوازن البيئي وتتأثر بأي خلل يحدث فيه وإبقاء الأنواع والسلالات فيه ضمان لاستمرار التوازن حتى لا يطغى عنصر على آخر فيحدث خللا في التوازن البيئي.
ويذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في مواقف كثيرة في القرآن الكريم أنه خلق من كل شيء زوجين ذكرا وأنثى لضمان التناسل والبقاء وحفظ النوع يقول عز وجل: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" (سورة الذاريات، الآية 49).

وخوفا من انتشار الأمراض التي تفتك بالنوع فقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بعملية الحجر الصحي فقد قال عليه السلام: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليها وإذا وجدتموه وأنتم بأرض فلا تخرجوا فرارا منه".
وقد نبّه الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى العناية بحفظ أطعمتهم وأشربتهم لكي لا تتلوث أو تتعرض للتسمم فنهى عن التنفس في آنية الشراب أو النفخ فيها حتى لا تنتشر الجراثيم المعدية للآخرين.
كما نهى عليه السلام عن تربية الكلاب لغير غرض لأنها تعتبر عائلا أساسيا للعديد من الفطريات كالدودة الشريطية، ولذا أمرنا عليه السلام إذا ولغ الكلب في الاناء أن نغسله سبع مرات أولهن بالتراب".
وفي إطار هذا المنهج يأمرنا الاسلام بالحفاظ على جميع عناصر البيئة وحمايتها من اتلاف أو فساد أو تلوث.
وعلى هذا فإن الله سبحانه وتعالى سخّر كل المخلوقات للإنسان فبعضها يعرفها ويستفيد منها فائدة مباشرة والبعض الآخر لا يعرفه بالرغم من فائدتها له وعدم معرفة الانسان بها إمّا لجهله بها أو أنها لا ترى بالعين المجردة كبعض أنواع البكتيريا يقول تعالى: "ويخلق ما لا تعلمون". (سورة النحل، الآية 8).
ولما كانت مشاكل فساد البيئة وتلوثها قد تعددت وتعقدت فأصبحت تشكل جانبا هاما من القضايا المعاصرة والتي حلّت بالبشرية نتيجة محاولات الانسان المستمرة في التدخل اللامحدود لبيئته، فإن الاسلام ندد بكل عمل أو نشاط خاطئ من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يضيفها العمل الصالح وفي موقفه هذا يسعى إلى حماية الانسان ومنجزاته الحضارية، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار. قال تعالى: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين" (سورة الأعراف، الآية 56). وقال أيضا: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (سورة الروم، الآية 41). وتشمل هذه الآية التلوث والفساد البيئي بكل أبعاده سواء في البر أو في البحر كما تشير إلى الضرر البالغ الذي يحل بالإنسان من جراء عمله ونتيجة المخالفات المتعددة سواء الصناعية أوالميكروبية أو المواد المشعة والإشعاعات الذرية، فالمنهج الرباني لخلافة الإنسان في الأرض يقتضي أن يتصرف فيها تصرف الأمين في حدود أمانته لذلك وضع الإسلام ضوابط لخلافة الإنسان في الأرض بوصفه أحد مكونات الكون الفاعل في النظام الإيكولوجي والمسؤول عن إدارتها واستثمارها وحمايتها وفق الموجهات الأساسية الواردة في الآيات القرآنية، فالانتفاع بالبيئة حق للجميع وهي ملك الأجيال القادمة والمحافظة عليها حق شرعه الله سبحانه وما على الإنسان إلاّ التعمير والاستثمار والانتفاع وتذوق الجمال.
وحذّر الله سبحانه وتعالى من الاستثمار غير الرشيد، وافساد أقواتها ومواردها فلا يجوز للإنسان العبث بالبيئة وإفساد ما منحنا الله جل وعلا وإخراجها عن طبيعتها الملائمة للإنسان، وحدد واجبات الإنسان في البناء والتعمير والتنمية في قوله: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (سورة هود، الآية 61).
إذن إنّ إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية والمحافظة على النظام الحيوي ومنع إفساد هذا النظام ينبغي أن يتحقق وفق القواعد الكلية لإصلاح الحياة التي تحكمها قواعد الاستخلاف المرتكز على الإيمان، وعلى هذا يمكن أن نحدد المبادئ المنبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والفقه الإسلامي والتي تشكل في مجموعها ملامح الفلسفة الإيمانية للتربية البيئية وهي:
مبدأ التوحيد: والذي يعني الإقرار المطلق بوجود خالق للكون والإنسان مسؤول أمام الله الواحد الأحد في كل عمل يعمله تجاه أي مكون من مكونات البيئة.
مبدأ الفطرة: وهي دعوة إلهية بأن يلتزم الإنسان بفطرة الله، والالتزام بقيم الخير التي تولد مع الإنسان وأنها جزء لا يتجزأ من تكوينه الخلقي الذي فطره الله عليه والذي يعتبر أساس لإعمار الوجود. قال تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (سورة الروم، الآية 3).
مبدأ الاستخلاف: إنّ الكون والحياة مسخّرات لخدمة الإنسان وفي الوقت نفسه هو وصي عليها، وهي أمانة الله لديه، وسيحاسب عن سوء استخدامه لهذه الأمانة فالوصاية لا تمنح الإنسان الحق المطلق

للسيطرة والاستنزاف قال تعالى: "هو الذي جعلكم خلائق في الأرض، من كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ مقتا، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خسارة" (سورة فاطر، الآية 39)، ومن واجبات الإنسان حماية ما خلق الله وإعلاء قيم الفضائل الخلقية.

مبدأ العلم: العلم والإيمان صنوان، والعلم من المنظور الإسلامي هو معرفة البارئ تعالى وما جاء من عند الله فقد قال تعالى: "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء" (سورة فاطر، الآية 28)، فبالعلم يكتشف الإنسان قوانين الطبيعة التي تخوّل له ضبط واستغلال البيئة واستثمارها عند الحدود الآمنة، وهي التي تصون البيئة وتحافظ عليها، فالحرص على الكفاءات العلمية وتطويرها ضرورة تمكن الإنسان من استغلال موارد بيئته استغلالا لا يحل بالنظام الإيكولوجي ويضمن حاجات الإنسان في الحاضر وإنسان المستقبل.

مبدأ الحلال والحرام: هما مفهومان يحكمان سلوك الإنسان نحو نفسه ومجتمعه ونحو بيئته، والله سبحانه وتعالى وضع حدود الحلال وحدود الحرام، فالحرام يشمل كل ما هو من شأنه تدمير الإنسان وتدمير بيئته واغتصاب حق الأجيال القادمة أما الحلال فهو كل ما هو نافع للإنسان ولمجتمعه وبيئته وللأجيال القادمة قال تعالى: " كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (سورة البقرة، الآية 36).

فالإنسان كلما سلك سلوكا بعيد عن الحدود التي رسمها الخالق جل شأنه تحصل الكوارث والمآسي والدمار قال تعالى:" ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون" (سورة الروم، الآية 41).

مبدأ العدل والاعتدال: إن من القواعد الأساسية في الإسلام الإفراط ولا تفريط ولا إسراف ولا تقتير فهذا يؤكده قوله الحق تعالى: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " (سورة الإسراء، الآية 29)، وقوله تعالى أيضا: " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" (سورة الأعراف، الآية 31).

وكذلك في قوله: " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس " (سورة البقرة، الآية 143).

فهذه الآيات كلها تؤكد على أهمية السلوك الراشد والعقلانية والعمل بما لا يلحق الأذى بنفسه ومجتمعه وبيئته، فالطبيعة ونظامها الإيكولوجي أمانة في عنق الإنسان فمن يعمل وفق حدود الشرع ويصونها ويستثمرها ويعمرها يستحق بالفعل أن يكون خليفتها الذي أدرك واستوعب الاستخلاف والتكليف. قال تعالى: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (سورة الكهف، الآية 30).

ثانيا: وسائل المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة :

يعتمد المنهج الإسلامي لعلاج قضية البيئة على ثلاث وسائل رئيسية تستهدف حماية البيئة من التلوث، والمحافظة على الحياة البرية والمصادر الطبيعية. وتندرج خذه الوسائل لتحقيق أهدافها في ثلاث مستويات:

ينطلق المستوى الأول من ضمير الإنسان ويرتبط بالوازع الإيماني، وينطلق المستوى الثاني من المدخل التشريعي لحماية البيئة، أما المستوى الأخير فيتمثل في تقديم نموذج للحفاظ على البيئة والحياة البرية وهذه الوسائل هي:

1- ربط الحفاظ على البيئة بالعقيدة الإسلامية: ترتبط قضية الحفاظ على البيئة بشكل عام وحمايتها من التلوث بشكل خاص بالعقيدة الإسلامية وتعد جزءا من إيمانه، فالإسلام يعتبر حماية البيئة من التلوث شعبة من شعب الإيمان يجسد ذلك الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة: فافضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان ".

وإماطة الأذى عن الطريق تعني مواجهة تلوث البيئة بكل أشكاله وتطهير البيئة التي يعيش فيها الإنسان من كل أنواع النجاسات، ومن هنا يطالب الإسلام بالتطهر والحث على النظافة باعتبارها شعبة من شعب الإيمان ويدعو إلى حماية البيئة من التلوث انسجاما مع هذا الإيمان.

والطهارة تكتسي أهمية خاصة في المنهج الإسلامي لارتباطها بأهم الواجبات الدينية للمسلم وهي الصلاة، فقد وردت الطهارة في 31 موضعا في القرآن الكريم، وقد ساد مفهوم التطهير من النجاسات

والأقذار ما يقرب من نصف ذلك المواضع مثل قوله تعالى:" إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " (سورة البقرة، الآية 222).
وقال أيضا: " وثيابك فطهر والرجز فاهجر" (سورة المدثر، الآيتين 4،5)، فالطهارة تمثل نصف الإيمان وفي المقابل تكون السلاح الذي نواجه به التو على مختلف المستويات فقد خلق الله – عز وجل – العالم وأحاطه بالجمال فقد قال المصطفى عليه السلام: "إن الله جميل يحب الجمال".
وتبدأ مواجهة التلوث من داخل الإنسان نفسه الذي يطالب الإسلام منه أن يكون نظيفا في ذاته وبدنه، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "تنظفوا فإن الإسلام نظيف"، كما تشمل نظافة البيئة في الإسلام الثوب الذي يرتديه المسلم وحسن المظهر، كما حث الإسلام على نظافة المكان الذي يعيش فيه المسلم فيقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: " إن الله طيب يحب الطيب، جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا اليهود ". وتشمل نظافة الأماكن – بالإضافة للبيوت- الأسواق والمساجد وغيرها من الأماكن التي يقيم فيها الإنسان، كما يحث الإسلام بصفة عامة على نظافة الأرض وحمايتها من التلوث، فقد جعل نظافة المكان شرطا أساسيا للأرض التي تؤدى عليها الصلاة، وتندرج تحت نظافة المكان الاختيار المناسب للموقع الذي سيقيم فيه الإنسان وقد وضع السلف الصالح شروطا للسكن من أبرزها أن يكون في بيئة خالية من الأمراض والعلل، وألا يكون معرضا للرطوبة أو محروما من النور والهواء وألا يكون منخفضا جدا تحت الأرض حتى لا يكون مستقرا للغازات الثقيلة مثل ثاني أكسيد الكربون ومما لا شك فيه أن سعة الدور عامل مهم لتهويتها وقد حرص المعماريون الإسلاميون على مراعاة هذه العوامل التي تضمن نظافة بيئة المنزل في تصميم المباني التي شيدوها.
2- المدخل التشريعي والقانوني لعقاب من يتعدى على البيئة: لقد حرص الفقه الإسلامي على ترجمة النصوص الواردة في القرآن والسنة إلى أحكام تتعامل مع البيئة بشكل يؤدي إلى الارتقاء بها والاستفادة منها بأحسن صورة ممكنة، فالفقه الإسلامي يحرم الإسراف في استخدام المياه وحتى في حالة الوضوء للصلاة، وهذا مثال دقيق يقدمه الإسلام لضرورة الحفاظ على عنصر من أهم عناصر البيئة، وهي أولى درجات التعامل التشريعي الإسلامي مع قضية البيئة، حيث يمكن أن يطلق عليه الأسلوب الوقائي الذي يحقق الردع الذاتي للإنسان تجاه أي محاولة لاستنزاف المصادر الطبيعية أو الإسراف في استهلاكها.
وهذا المستوى يمثل حلقة الوصل بين الوسيلة السابقة التي يتبعها الإسلام للحفاظ على البيئة وهي ربط قضية الحفاظ على البيئة بالعقيدة الإسلامية وبين الوسيلة الثانية وهي المدخل التشريعي والقانوني لعقاب من يتعدى على البيئة، وهو مستوى أشد تشددا في الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث ويتمثل في منع جميع الملوثات المسببة ضررا للبيئة.
وقد حدد القرآن الكريم عقوبات تقع على من يتعدى على الحياة البرية حيث يقول الحق تبارك وتعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام" (سورة المائدة، الآية 95).
وقد شهد عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب تشكيل أول محكمة خاصة بشؤون البيئة في التاريخ كله، فتروي كتب الفقه أن رجلا قد جاء إلى عمر ابن الخطاب فقال: " إني أجريت أنا وصاحب لي فرسين إلى ثغرة ثنية (وهي تغثرة في الطريق) فأصبنا ظبيا ونحن محرمان فما ترى؟ فقال عمر لرجل إلى جانبه: تعالى أحكم أنا وأنت، قال: فحكما عليه بعنز، فولّى الرجل وهو يقول: هذا أمير المؤمنين لا يستطيع أن يحكم في ظبي حتى دعا رجل يحكم معه فسمعه عمر فرعاه وسأله: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال لا، فقال فهل تعرف هذا الرجل الذي حكم معي؟ قال: لا. فقال عمر: لو أخبرتني أنك تقرأ سورة المائدة لأوجعتك ضربا، ثم قال إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: " يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة " وهذا عبد الرحمان بن عوف.
و هذه الواقعة واضحة الدلالة على أن الإسلام قد سبق في تشكيل محكمة لتقضي في قضية تتعلق بالبيئة.
3- تحديد محميات طبيعية: إن الوسيلة الثالثة التي يعتمد عليها المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة وحمايتها من أي تعدّ عليها، فهي تحديد مناطق طبيعية لتكون نموذجا يحتذي به العالم في الحفاظ على الحياة البرية.

فلقد حرم الإسلام التعدي على الحياة البرية في مكة المكرمة حيث يقول تعالى: " أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما" (سورة المائدة، الآية 96).
فهو بذلك ولأول مرة في تاريخ البشرية يتم تخصيص منطقتين باعتبارهما محميتين طبيعيين، هما مكة المكرمة والمدينة المنورة.
وقد وضع القرآن الكريم التشريع الملائم للحفاظ على الحياة البرية في مكة المكرمة حيث يقول الحق تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم " (سورة المائدة، الآية 95).
ومن الأحاديث النبوية التي توضح ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال يوم فتح مكة: " أن هذا البلد حرام لا يعضد (لا يقطع) شوكه ولا يختلي خلاه (أي لا يقطع الرطب من النبات) ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف، فقال ابن عباس: إلا الأذخر (نبات طيب الرائحة)، فقال الرسول: إلا الأذخر. و هكذا سبق الإسلام بتقرير هاتين المحميتين وكأنه أراد أن تكونا نموذجين لمحميات طبيعية أخرى تستهدف الحفاظ على الحياة البريّة وحماية ما بها من كائنات.
إن ما يمكن قوله من خلال ما سبق هو أن الإسلام منهج شامل لعلاج قضية البيئة يقوم على التعايش السلمي بين الإنسان وبيئته ودعوة الناس إلى الحافظة على المصادر الطبيعية من خلال التعامل الراشد معها بعيدا عن كل أنواع الفساد الذي من شأنه أن يؤدي إلى الدمار والهلاك.
فالإنسان خلق ليكون خليفة الله في الأرض ومقتضيات العبادة تتطلب أن يمتثل لتعاليم الخالق في كل أفعال العباد، والإنسان في هذه الرؤية سيد في الكون وليس سيدا للكون، فهناك مخلوقات أخرى وصفها القرآن بأنها أمم أخرى سخّرها الله له وفق شروط وقواعد وضوابط عليه الالتزام بها حتى يحيا الحياة الطيبة.

المراجـــع

1. عبد الرحيم الرفاعي بكرة (1992)، أسس التربية البيئية في الإسلام – مجلة دراسات تربوية، (العدد 40).

2. أحمد يوسف البشير (1991)، الإنسان وعلاقته بالبيئة من المنظور الإسلامي (بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمات الاجتماعية (10 -13) أوت. القاهرة: المعهد الإسلامي للفكر الإسلامي.

3. ريمون المعلولي (2010)، التربية البيئية والسكانية ، دمشق: جامعة دمشق ، كلية التربية.

4. رشيد المحب ؛ محمد صابريني (1994)، الإنسان والبيئة، أربد : مكتبة الكتاني.

5. ماهر إسماعيل الجعفري (2008)، نحو فلسفة إيمانية للتربية البيئية . عمان: دار الشروق، ط1.

6. راتب السعود (2007)، الإنسان والبيئة (دراسة في التربية البيئية) عمان : دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ط2.

7. رمضان عبد الحميد الطنطاوي (2008)، التربية البيئية تربية حتمية. عمان : دار الثقافة، ط1.

8. زين الدين عبد المقصود (1986)، البيئة والإنسان – رؤية إسلامية. الكويت : دار البحوث العلمية.

9. خالد محمود عبد اللطيف (1993)، البيئة والتلوث من منظور الإسلام. القاهرة: دار الصحوة.